بقايا الفصاح

أعيد في هذه الأيام مطالعة كتاب الأغاني ، لقد مررت على أخبار المغنّي الغريض فوجدت في جملة أخباره أنه كان جميلاً ، وضيئاً ، وكان يصنع نفسه ويترفها . . . فتوقّفت قليلاً لمّا مررت بهذه المادة : يصنع نفسه ، فقد أشكل عليّ معناها ولم أدر كيف ألفظ يصنع ، أهي مخفّفة أم هي مشدّدة ، فرجعت الى معجم الفيروزابادي ، ولم أرجع اليه لأنه أصلح المعجمات ولكني رجعت اليه لأنني لا أملك غيره ، فوجدت لمادة صنع معاني كثيرة ، في جملتها هذا المعنى : صنّع الجارية ، بالتشديد ، أي أحسن اليها ، وصنعت فرسي ، بالتخفيف ، أي أحسنت القيام عليه ، فاستخرجت من ذلك أن الغريض كان يُحسن الى نفسه أو كان يُحسن القيام عليها ويترفها ، أي ينعّمها ؛ وسواء أكانت صنع مخفّفة أم كانت مشدّدة فهل يستعملونها في عصرنا على معناها الأول ، أمّا صنع ، مخفّفة ، فقد ترد في بعض الصحف ، من ذلك قولهم : نحن صنعنا التاريخ . . . ولكني لا أدري ماذا يقصدون في هذا التعبير ، أيريدون أن يقولوا : نحن أحسنّا القيام عليه ، على سبيل المجاز . فاذا أرادوا هذا الوجه فهذه المادّة تعيش في أيامنا على أصل معناها ، وأما صنّع ، مشدّدة ، فاني كنت أسمع من الذين كانوا يزورون آل السعود في نجد والحجاز أن الملك كان يصيح بوزير المال ويقول له : صنّع فلاناً ، بالتشديد ، أي أعطه كذا وكذا ، أحسن اليه ، وكان الذين ينقلون إليّ هذه المادّة يلفظونها بالسين ، ولم أبال بذلك ، فان بعض الألفاظ التي ترد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيها السين أو الصاد تلفظ بالسين أو بالصاد على السواء ، مثل الصراط والسراط وغيرها ، فمادّة التصنيع ، مشدّدة ، بمعناها الأول ، وهو الإحسان ، لا تزال تعيش في بعض بلاد العرب ، مثل نجد والحجاز ، ولكنها في بلاد ثانية قد فقدت أصل معناها وانتقلت الى معنى آخر يدخل في الصناعة ، وأعتقد أنها ستفقد أصل معناها في نجد نفسها ، وفي الحجاز نفسها ، بعد أن تبطل المجازفة بالإحسان وتوضع الموازنات بحسب القواعد الحديثة في بلاد العالم .

ولئن بطل معنى التصنيع الأول في كثير من بلاد العرب فقد أصبح لهذه المادة معنى خاص اقتضته حضارة العصر ، ما هو هذا المعنى ؟ إذا قلنا : التصنيع ، في عصرنا هذا ، أردنا بذلك عمل الصناعة وهي حرفة الصانع ، فالتصنيع انتقلت على نحو ما سبقت الإشارة اليه من معنى الى معنى ، ولم تتوسع العرب في قديم دهرها في مذاهب الصناعة لتتوسّع في مشتقات هذه المادة ، فنحن نجد من مشتقاتها : الصناعة وهي حرفة الصانع ، والصنعة وهي عمله ، وصنعة الفرس وهي حسن القيام عليه ، وصُنعت الجارية بالتخفيف والتشديد ، أي أُحسن اليها ، أو التخفيف خاص بالفرس والتشديد خاص بالجارية ، ورجل صنع اليدين ، بالكسر وبالتحريك ، وصنيع اليدين وصناعها ، أي حاذق في الصنعة ، والمصنع وهو مجمع ماء المطر ، والمصانع وهي القرى والمباني من القصور والحصون ، واصطنع خاتماً ، أي أمر أن يصنع له ، الى آخر ما ورد في مشتقات صنع .

فالذي يتبيّن لنا أن مشتقات صنع ، ممّا له صلة بالصناعة نفسها ، قليلة اذا قيست بمشتقات ثانية ، فاذا قابلنا بين هذه المادة ي الصناعة ، وبين مادة ثانية وهي الإبل ، ونظرنا في توسّع العرب في مشتقات كل واحدة منها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ظهر لنا الفرق في هذا التوسع ، فاذا كانت العرب لم تعن بالصناعة كبير العناية فقد عنيت بالإبل العناية الكبرى ، والألفاظ توضع عادةً بمقدار الحاجة الى مدلولاتها ، فالحاجة الى الصناعة في قديم تاريخنا كانت قلّ من الحاجة الى الإبل ، فان أكثر حياة العرب في البادية كانت قائمة على الإبل ، ولذلك توسّعوا في مشتقات مادّة الإبل ، فوضعوا موادّ لمن يتخذ الإبل ، ولمن تكثر إبله ، ولمن يحذق مصلحة الإبل ، ولمن يشتدّ تأنقه في رعيتها ، وللعشب الذي يطول فتستمكن منه الإبل ، ولمن يجعل للمرء إبلاً سائمة ، ولمن لا يثبت على رعية الإبل ولا يحسن مهنتها ولتسميتها ، وللبعير اللحيم ، وللناقة المباركة في الولد ، وغير ذلك من المشتقات ، ولم أشأ أن أذكر الموادّ بألفاظها خوفاً من الإضجار ، انها مدوّنة في المعجم ، فمن شاء فليرجع اليها .

لقد أطلت قليلاً في الإشارة الى مشتقات مادة : الإبل ، وأرجو أن لا يكون في هذه الإطالة بعض الملل ، فما غايتي الاّ توضيح الفرق بين المادة التي تحتاج اليها العرب وبين المادة التي كانت تقلّ اليها الحاجة ؛ فالصناعة قليلة المشتقات لأن العرب لم تكثر ممارستها لها في القديم ، أمّا مادّة الإبل فانها أكثر مشتقات لأن على الإبل كانت تقوم حياة العرب في البادية .

ما الذي أوحت اليّ هذه المقابلة ، أي المقابلة بين مشتقات مادةٍ تشتد الحاجة اليها ، وبين مشتقات مادة تخفّ اليها هذه الحاجة ، لقد أوحت اليّ أمراً ذا بال ، وأرجو أن لا أخرج عن موضوعي وأنا أعالج بقايا الفصاح ، لقد رأيت أن معجمات اللغة قد شحنت بألفاظٍ ماتت على تعاقب الدهور ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهي مدفونة في بطون المعجمات كما تدفن العاديات في المتاحف ، فان مادّة الإبل نفسها قد اشتملت من المشتقات على ما لم تعد حاجة اليه في عصرٍ مثل عصرنا ، عصر الصناعة وسفن الفضاء والصواريخ وما شابه ذلك ، فلا يحتاج العرب في حضارتهم الحديثة الى الإبل مقدار حاجتهم الى ما أشرت اليه ، واذا هم لا يحتاجون الى هذه الإبل في مدنهم وأمصارهم ، في حضارتهم ، فهم لا يحتاجون الى ما جاء من مشتقات مادة الإبل ؛ ما هي نتيجة هذا كله ؟ انها نتيجة واضحة ، فالألفاظ التي لا نحتاج الى مدلولاتها يبطل استعمالها فتبقى مدفونة كما قلت في بطون المعجمات ، ونضطر الى ايجاد الألفاظ التي تفصح عن حاجات حياتنا الحديثة ، حياة الحضارة ؛ إنّا لا نفتح معجماتنا الا ّ وقع نظرنا على آلاف من الألفاظ التي ماتت ، فبطل بهذا الموت استعمالها ، فما أشدّ عمل الذين يجهدون في وضع المعجمات في عصرنا هذا ، فقد يتنازعهم عاملان : عامل الحرص على اللغة ، وتدوين هذه اللغة في معجماتهم بحذافيرها كأنها تصوّر حياة العرب في تاريخهم أكمل تصوير ، وعامل الاستغناء عن تدوين الألفاظ التي ماتت ولم تبق حاجة اليها في أيامنا مجاراة لروح العصر . ولا ريب في أن الاستغناء عن تدوين الألفاظ التي ماتت لا يخلو من إدخال الألم على النفوس ، فان هذه الألفاظ كانت لها حياة ناضرة في تاريخها ، فقد تقلّبت في أعطاف السعادة حتى كانت نتيجة هذه السعادة موتها واستقرارها في بطون المعجمات . وما أظن أن الذين يعنون بوضع المعجمات في زماننا يشفقون على الألفاظ التي ماتت فيدوّنونها في معجماتهم ؛ إنهم إن فعلوا شيئاً من ذلك خرجوا على روح العصر ولم يكن في عملهم نفع . إني لا أنقطع عن مطالعة المعجمات ، وقد أمرُّ بطوائف كثيرة من الألفاظ التي ماتت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فاستراحت في مدافنها ؛ وما أكثر الشواهد في هذا الباب ، ولكني لا أكثر من هذا الشواهد ، فقد كنت أطالع وأنا أكتب هذا المقال مادّة حنبل ؛ ماذا وجدت في هـــذه المادة ، من معاني الحنبل : القصير والفَرْو أو خَلَقُه ، أو الخُف الخَلَق ، والبحر والضخم البطن أو اللحيم ، فمن الذي يستعمل هذه المادة بمعانيها المذكورة في عهدٍ مثل عهدنا ؟ اني أعتقد أن مادّة الحنبل قد ماتت بكل معانيها ، ولم يبق منها الاّ الإمام أحمد بن عبـــد الله بن حنبل ، إمام السُّنة الذي تتحنبلُ الرؤوس إجلالاً له ، أي تتطأطأ .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net